وليس بأول ذي همة

يمدحه ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان العدوي من أسر الخارجي سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):

[المتقارب]

إِلَامَ طَمَاعِيَةُ الْعَاذِلِ،
وَلَا رَأْيَ فِي الْحُبِّ لِلْعَاقِلِ[١]
يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ
وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ[٢]
وَإِنِّي لَأَعْشَقُ مِنْ عِشْقِكُمْ
نُحُولِي وَكُلَّ امْرِئٍ نَاحِلِ[٣]
وَلَوْ زُلْتُمُ ثُمَّ لَمْ أَبْكِكُمْ
بَكَيْتُ عَلَى حُبِّيَ الزَّائِلِ[٤]

---

(١) وردت الأبيات الثمانية المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤١. العاذل: اللائم. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. لا ينفع لوم العاذل مهما تكن دوافعه مع عاقل رشيد، لأن الحبّ ساقه إليه بخيوط حريرية ليّنة قويّة لا يستطيع منها فِكاكاً، وفي هذه الحالة ما عاد للرشاد مكان؛ فالإرادة مقيّدة، والعقل يكاد يكون مشلولاً وشرك الحبّ قد شدّد قبضته.

(٢) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٢٤. يُردف الشاعر أن اللائم لا يزال يمارس ضغوطاً قويّة علّ الشاعر يستجيب فيرتدع القلب عن التعلق بالمحبوب وينسى الحبّ وعذابه، ولكن الأمر لا يتعلّق بالإرادة لأن طباع الحبّ تجبر على الانقياد والاستجابة السريعة توجب الانصياع لأوامره.

(٣) يُعقّب الشاعر أنه عاشق لأيّ شيء لنحوله؛ فالحبّ مارس لعبته معه فسلبه النوم وأورثه القلق والسهر، فإذا به يضوى، وبدأ النحول يغزو جسده، فهو إذا وجد امرأ ناحلاً أحبّه لأنه يُعاني ما يعانيه من الحب.

(٤) زلتم: رحلتم. يُخاطب الشاعر حبيبته، قد لا يبكي في حال رحيلها، ولكن سيبكي لفراق حبّه لها، وقد وجد فيه لذّة العذاب وطعم الألم، فهو يُحبّ من الحبّ الذي يسمو بالإنسان فيُرقّق شعوره ويصقل أحاسيسه.

أَيُنْكِرُ خَدِّي دُمُوعِي وَقَدْ
جَرَتْ مِنْهُ فِي مَسْلَكٍ سَابِلِ (١)
أَأَوَّلُ دَمْعٍ جَرَى فَوْقَهُ،
وَأَوَّلُ حُزْنٍ عَلَى رَاحِلِ (٢)
وَهَبْتُ السُّلُوَّ لِمَنْ لَامَنِي،
وَبِتُّ مِنَ الشَّوْقِ فِي شَاغِلِ (٣)
كَأَنَّ الْجُفُونَ عَلَى مُقْلَتِي
ثِيَابٌ شُقِقْنَ عَلَى ثَاكِلِ (٤)
وَلَوْ كُنْتُ فِي أَسْرِ غَيْرِ ٱلْهَوَى
ضَمِنْتُ ضَمَانَ أَبِي وَائِلِ (٥)
فَدَى نَفْسَهُ بِضَمَانِ النُّضَارِ
وَأَعْطَى صُدُورَ الْقَنَا الذَّابِلِ (٦)

(١) و (٢) المسلك السابل: الطريق الدائم السلوك. يُعقّب الشاعر أنه دائم البكاء، والبكاء لا يستكين، فلا لخدّه أن يُنكر بكاءه، فدموعه قد عرفت مجاريها لدوامها على البكاء، وقد حفرت سُبُلاً ذُلُلاً فيه تسلكها باستمرار، فليس بكاؤه هذا أول بكاء، بل قد مارس لعبة البكاء من زمن، إنه عاشق بالفطرة قديم بالتجربة، وباستمرار ينتهي أمره مع الحبّ بهجرة الحبيب فيصاحبه البكاء المزمن.

(٣) لقد تخلّى الشاعر عن النسيان طوعاً للّائم ليُريح باله، أما الشاعر فقد أعلن تمسّكه بحبّه وشوقه ولن يتخلّى عن انشغاله به ولو دام الأمر على حاله من بكاء وعذاب.

(٤) الثاكل من النساء: التي فقدت ولدها. يصف الشاعر حالته إثر مغادرة حبيبته، فقد تركته ساهراً قلقاً يُصاحب عينيه بكاء دائم كثاكلة فقدت فلذة كبدها فأسلمها ذلك إلى بكاء أليم وقرّح جفنيها فبدتا كثياب شققن حزناً.

(٥) يتخلّص الشاعر من الغزل لمدح سيف الدولة. أسر الهوى ذو سلاسل حريرية متينة من العسير الفكاك منها بشتّى الوسائل، فحتى الحيلة لا تنجح فيه كما ضمن أبو وائل ابن عم سيف الدولة الفداء، إذ ضمن لمن أسره مالاً حتى فكّ أسره.

(٦) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٣. النضار: الذهب. القنا الذابل: الرمح اللينة. يُتابع الشاعر ذكر الحدث، فقد ضمن أبو وائل أن يفكّ أسره بالذهب، =

وَمَنَّاهُمُ ٱلْخَيْلَ مَجَنُوبَةً
فَجِئْنَ بِكُلِّ فَتًى بَاسِلِ (١)
كَأَنَّ خَلَاصَ أَبِي وَائِلٍ
مُعَاوَدَةُ الْقَمَرِ الآفِلِ (٢)
دَعَا فَسَمِعْتَ وَكَمْ سَاكِتٍ
عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ (٣)
فَلَبَّيْتَهُ بِكَ فِي جَحْفَلٍ
لَهُ ضَامِنٍ وَبِهِ كَافِلِ (٤)
خَرَجْنَ مِنَ النَّقْعِ فِي عَارِضٍ
وَمِنْ عَرَقِ الرَّكْضِ فِي وَابِلِ (٥)

= فإذا بسيف الدولة يأتيه بجيشه ويستنقذ ابن عمّه ويقتل الخارجي ومن معه برماح ذابلة.

(١) و (٢) مناهم: حملهم على التمنّي. المجنوبة من الخيول: التي لا تركب بها تُهيّأ لوقت الحاجة. الباسل: البطل الشجاع. يُتابع الشاعر وصف الحدث الذي انتهى بتحرير أبي وائل، فقد وعدهم ومناهم بحصولهم على جياد تُساق إليهم لقاء فدائه، فإذا بها تحمل إليهم فرساناً لقتالهم، فإذا به يعود إليهم حرًّا طليقاً من أسر الظلمة إلى الحرية، كقمر قد أفل، فإذا به وقد بهر بنور طلعته أنظار محبّيه.

(٣) يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأن ابن عمّه دعاه لاستنقاذه من بين أيدي الخارجي فلبّى الدّعاء دون تردّد أو فتور، فحتى لو لم يدعه لكان الأمير يعمل على فكّ أسره بدافع القرابة ومسؤولية الراعي على رعيته؛ إنه كرم الأخلاق وصدق المسؤولية التي يضطلع بها الأمير.

(٤) الجحفل: الجيش العظيم. إنها إجابة عملية وليست كلاماً ووعداً. فكان جيش عظيم وعلى رأسه أمير بطل ضماناً عملياً لاستنقاذ الأسير وتحريره وإعادته إلى دياره وأهله.

(٥) النقع: الغبار. العارض: السحاب الماطر. الوابل: المطر الدافق. يبدو أن الخيل قد قصدت الخارجي في يوم شديد الحرارة، فقد تعالى الغبار في السماء، ولاشتدادها في سرعتها قد كساها العرق فكأنه مطر دافق.

فَلَمَّا نَشِفْنَ لَقِينَ السِّيَاطَ
بِمِثْلِ صَفَا الْبَلَدِ الْمَاحِلِ (١)
شَفَنَّ لِخَمْسٍ إِلَى مَنْ طَلَبْنَ
قُبَيْلَ الشُّفُونِ إِلَى نَازِلِ (٢)
فَدَانَتْ مَرَافِقُهُنَّ الثَّرَى
عَلَى ثِقَةٍ بِالدَّمِ الْغَاسِلِ (٣)
وَمَا بَيْنَ كَاذَتَيِ الْمُسْتَغِيرِ
كَمَا بَيْنَ كَاذَتَيِ الْبَائِلِ (٤)
فَلُقِّينَ كُلَّ رُدَيْنِيَّةٍ
وَمَصْبُوحَةٍ لَبَنَ الشَّائِلِ (٥)

(١) السياط: المقارع. الماحل: الذي دبّ فيه الجفاف. الصفا: الصخر الرقيق الصلب. يُتابع الشاعر وصف ما آل إليه أمر تلك الجياد، وحالما جفّت من العرق الذي كان يُغطي أجسادها كانت السياط التي كانت تتلقّاها فتمطرها بوابل من الضربات يلهبها نشاطاً رغم ما ألم بها من إرهاق، فتقع على جلودها كأنها مَنزل بصخر البلد الذي دبّ فيه الجفاف.

(٢) شفن: نظرن. يصف الشاعر رحلة الخيول، فقد كان اهتمامها باستنجاد أبي وائل، لذا فقد كانت عيونها على من في الأسر فلم تنتظر من فرسانها إراحتها طوال ليالٍ خمس؛ حتى أدرك القوم الخاطفين وأعملوا فيهم رماحهم وسيوفهم.

(٣) دانت: قاربت. الثرى: التراب. يروى «البرى» بدلاً من «الثرى» وهما بمعنى واحد. يُتابع الشاعر وصف تلك الجياد التي ساخت قوائمها في التراب إلى مرافقها يقيناً منها أنها سوف تُزيل الثرى عنها حالما تنهمر دماء الخاطفين تسفكها سيوف فرسانها.

(٤) الكاذة: لحم الفخذ. المستغير: الذي يطلب الغارة. البائل: الذي يُفسح ما بين فخذيه ليبول. يُتابع الشاعر وصف تلك الخيول متابعاً فكرة عدم توقف الخيول عن عدوها، وقد كانت تفتح ما بين قوامها لتسمح للعرق كي يسيل دون أذيتها كأنها تبول.

(٥) الرماح الردينية، تنسب إلى امرأة تسمى ردينة كانت تقوّم الرماح. المصبوحة من الخيل: التي تسقى لبناً كلّ صباح. الشائل من النياق: التي قلّ لبنها. يصوّر الشاعر ما حدث بين جيش سيف الدولة والخاطفين، فقد كانوا على استعداد لردّ أية غارة =

وَجَـــيْـــشَ إمَـــامٍ عَـــلَـــى نَـــاقَـــةٍ
صَـحِـيـحِ الإمَـامَـةِ فـي الْـبَـاطِـلِ[١]
فَـــأَقْـــبَـــلْـــنَ يَـــنْـــحَـــزْنَ قُـــدَّامَـــهُ
نَـــوَافِـــرَ كَـــالـــنَّـــحْـــلِ وَالْـــعَـــاسِـــلِ[٢]
فَـــلَـــمَّـــا بَـــدَوْتَ لِأَصْـــحَـــابِـــهِ
رَأَتْ أُسْـــــدُهَـــــا آكِـــــلَ الآكِـــــلِ[٣]
بِـــضَـــرْبٍ يَـــعُـــمُّـــهُـــمُ جَـــائِـــرٍ
لَـــهُ فِـــيـــهِـــم قِـــسْـــمَـــةُ الْـــعَـــادِلِ[٤]
وَطَـــعْـــنٍ يُـــجَـــمِّـــعُ شُـــذَّانَـــهُـــمْ
كَـــمَـــا اجْـــتَـــمَـــعَـــتْ دِرَّةُ الـــحَـــافِـــلِ[٥]
إذا مَـــا نَـــظَـــرْتَ إلَـــى فَـــارِسٍ
تَـــحَـــيَّـــرَ عَـــنْ مَـــذْهَـــبِ الـــرَّاجِـــلِ[٦]

= وعدوان، فإذا بهم يُشرّعون رماحهم الردينية يستقبلون بها جيش الأمير، وهم على ظهور الخيول الكريمة التي تسقى لبن النياق الشائلة مع الفجر.

(١) يُتابع الشاعر حديثه عن جيش الخوارج، إنهم كجماعة بايعت أحدهم بالإمامة، وهو بحدّ زعمهم إمام حقاً، بينما هو إمام بالباطل في نظر الشاعر.

(٢) و (٣) ينحزن: يملن مجتمعات. العاسل: جاني العسل. يصف الشاعر حالة الإرباك التي كان عليها جيش الخارجي في مقابلة غير متكافئة مع جيش منظم تحت قائد مجرّب خبير في الحروب، فإذا بهم يفرّون من بين أيدي المغير كأنهم نحل فاجأهم عاسل يود إخراجهم من قفيرهم ليستولي على ما فيه. وكان لا بدّ من استبسال تلك الجماعة، فالأبطال منهم والشجعان لم ينفروا بل قاتلوا قتالاً شرساً كأسود ضارية، وفي اعتقادهم أنهم لا ينهزمون، فإذا بهم يقعون ضحية بطل الأبطال فكان أن افترسهم، ولم يبق عليهم.

(٤) يُردف الشاعر حديثه عمّا آلى أمر هؤلاء على أيدي سيف الدولة، فقد شدّد القصاص عليهم، وكان الضرب عنيفاً لا رحمة فيه يتمثّل فيه الجور، فإذا به يعمهم بعدل، لأنهم فئة خارجة على شرع اللّه تعالى.

(٥) و (٦) الشذّان: المتفرقون. الدرّة: اللبن. الحافل: الممتلئة الضرع. يُردف الشاعر أن =

فَظَلَّ يُخَضِّبُ مِنْهَا اللِّحَى
فَتًى لَا يُعِيدُ عَلَى النَّاصِلِ[١]
وَلَا يَسْتَغِيثُ إِلَى نَاصِرٍ
وَلَا يَتَضَعْضَعُ مِنْ خَاذِلِ[٢]
وَلَا يَزَعُ الطِّرْفَ عَنْ مُقْدَمٍ
وَلَا يَرْجِعُ الطَّرْفَ عَنْ هَائِلِ[٣]
إِذَا طَلَبَ التَّبْلَ لَمْ يَشْأَهُ
وَإِنْ كَانَ دَيْناً عَلَى مَاطِلِ[٤]

= ما ألمّ بهم من هزيمة شنعاء؛ فقد جمعت بينهم البلية بطعن وحّدهم في ظلال الموت كما يجتمع اللبن في ضرع مليء باللبن، فهم على ضيقهم ازدادوا ضيقاً على ضيق، فما استطاعوا فكاكاً ولا هرباً. فالفارس منهم في حيرة من أمره، فباستطاعته الفرار، ولكن ارتباكه أفقده القدرة على الحركة والتفكير، فهو في حال كهذا ليس بأفضل من راجل يحاول حماية نفسه بشتّى الوسائل.

(١) و (٢) الناصل: الذي زال خضابه. يصف الشاعر سيف الدولة بالفتى البطل الشجاع الذي يُمارس معهم ما اعتاد عليه، فقد كانت ضربة واحدة من ضرباته كافية لكي تزيل الحناء عن لحى هؤلاء فلا يعيدها لتكون القاضية، وهو في ذلك لا يستعين بسواه ولا يستنصر غيره إلى جانبه، وهو لقوّته ثابت الجأش لا تهزّه الأحداث مهما تكن، فلا يعرف قلبه معنى الخوف ولا يهتم لأمر من يعمل على خذلانه، لهمته العظيمة وإرادته القوية.

(٣) يزع: يمنع. الطّرف، بكسر الطاء: الجواد الكريم. الطَّرف، بفتح الطاء: النظر. الهائل من الأمور: العظيم. يصف الشاعر إقدام سيف الدولة في الحروب، إنه لا يرهب أحداً، ودائماً يتقدّم بفرسه الكريمة فلا يحول دون تقدّمه حائل، فالخوف مات في قلبه الجريء، وهو لا يلتفت لشيء، فنظره يلاحق هدفه الذي يضعه أمام عينيه في المعركة.

(٤) التبل: الثأر. يشأه: يسبقه، يصف الشاعر صلابة وعزيمة ممدوحه إنه ليس من طبعه ترك ثأره، فمهما طال الزمن لا بدّ له من إدراكه ولو كان دينه عند مماطل مسواف فلا بدّ من تحصيله آخر الأمر.

خُـــذُوا مَـــا أَتَـــاكُـــمْ بِـــهِ وَٱعْـــذِرُوا
فَـإِنَّ الْـغَـنِـيـمَـةَ فـي الْـعَـاجِـلِ (١)
وَإِنْ كَـانَ أَعْـجَـبَـكُـمْ عَـامُـكُـمْ
فَـعُـودُوا إِلَـى حِـمْـصَ فِـي الـقَـابِـلِ (٢)
فَـإِنَّ الْـحُـسَـامَ الْـخَـضِـيـبَ الَّـذِي
قُـتِـلْـتُـمْ بِـهِ فـي يَـدِ الـقَـاتِـلِ (٣)
يَـجُـودُ بِـمِـثْـلِ الَّـذِي رُمْـتُـمُ
فَـلَـمْ تُـدْرِكُـوهُ عَـلَـى الـسَّـائِـلِ (٤)
أَمَـامَ الْـكَـتِـيـبَـةِ تُـزْهَـى بِـهِ
مَـكَـانَ الـسِّـنَـانِ مِـنَ الْـعَـامِـلِ (٥)

---

(١) و (٢) يُخاطب الشاعر هؤلاء القوم ساخراً وقد باؤوا بالهزيمة، فعليهم أن يعذروه في ما حصل لهم لقبولهم بضمان الفداء فقد حصلوا عليه هزيمة منكرة، وهذا معجّل، أما ما تأخر فلن يكون له حساب ولن يحصل. وبدافع التحدّي وبسخرية جارحة، إن أراد الكرّة في حمص فعليهم شهود الوقعة فيها في العام التالي، وهم يعرفون النتيجة مسبقاً.

(٣) الحسام: السيف البتّار. الخضيب: المخضّب بالدماء. يُردف الشاعر كلامه معقباً أن السيف الذي تلوّث بدماء القوم لا يزال على حاله في يد من استعمله لقتالهم، وهو على استعداد للقاء القوم في المرة القادمة إن أرادوا المغامرة وسيلقون منه ما وجدوا في المرة الأولى.

(٤) يجود: يتكرّم. السائل: طالب المعروف. يمدح الشاعر ممدوحه، إنه جواد كريم لا يخيّب سائلاً، فلو كان سؤال القوم من وجهة مسالمة لأدركوا بُغيتهم، ولكنه كان عن طريق فكان أن جاد عليهم بالهزيمة النكراء.

(٥) الكتيبة: الفرقة من الجيش. تزهى: تفتخر. العامل: ما يلي سنان الرمح. يمدح الشاعر ممدوحه بالقوّة والشجاعة، فجيشه يفخر به، لأنه دائم التقدم في المعارك، إنه بمثابة السنان في صدر الرمح، فبه يطعنون أعداءهم وبه ينتصرون. إنه ضرورة لا غنى عنه بينهم.

وَإِنِّـــي لَأَعْـــجَـــبُ مِـــنْ آمِـــلٍ
قِـــتَـــالاً بِـــكُـــمْ عَـــلَـــى بَـــازِلِ[١]
أَقَـــالَ لَـــهُ ٱلـــلَّـــهُ لَا تَـــلْـــقَـــهُـــمْ
بِـــمَـــاضٍ عَـــلَـــى فَـــرَسٍ حَـــائِـــلِ[٢]
إِذَا مَـــا ضَـــرَبْـــتَ بِـــهِ هَـــامَـــةً
بَـــرَاهَـــا وَغَـــنَّـــاكَ فِـــي الْـــكَـــاهِـــلِ[٣]
وَلَـــيْـــسَ بِـــأَوَّلِ ذِي هِـــمَّـــةٍ
دَعَـــتْـــهُ لِـــمَـــا لَـــيْـــسَ بِـــالـــنَّـــائِـــلِ[٤]
يُـــشَـــمِّـــرُ لِـــلُّـــجِّ عَـــنْ سَـــاقِـــهِ
وَيَـــغْـــمُـــرُهُ الـــمَـــوْجُ فِـــي الـــسَّـــاحِـــلِ[٥]

---

(١) البازل من الإبل: الذي نبت نابه في السنة التاسعة. يسخر الشاعر من الخارجي الذي ربط النصر بتحريك كمه وركوبه ناقة، إنه بلا شكّ غبي، فالنصر له أسبابه، والأمر لا يتعلّق بالترهات.

(٢) الماضي: السيف القاطع. الحائل من الأفراس: التي لم تحمل. يُردف الشاعر ساخراً من الخارجي، وكان قد ادّعى النبوّة، هل اللّه عزّ وجلّ أمره أن يُقاتل سيف الدولة على تلك الحالة من الترّهات، وألّا يستعين بسيف ماضٍ وألّا يمتطي فرساً حائلة.

(٣) الهامة: الرأس. براها: قطعها. الكاهل: أعلى الكتفٌ. يُتابع الشاعر سخريته، أن اللّه تعالى طلب من الخارجي ألّا يلقى جيش سيف الدولة بسيف يبتر الرؤوس، وتصل ضربته إلى رأس يشقّه بعزم حتى يصل إلى كتف صاحبه فيُسمع صوته من قطعه، كأنه يُغني.

(٤) يُتابع الشاعر سخريته، أن ذلك الخارجي دعته همته، بل وهمه تولّي الخلافة والملك، إنه مطلب عسير المنال لا يقدر على تحقيقه أمثاله من الأغبياء.

(٥) اللجّ: اليمّ المتلاطم. يُتابع الشاعر سخريته، بأن ذلك الخارجي أراد أن ينهض إلى الأمر العظيم وليس لديه ما يُعينه على تحقيق ما يريد من ملك وخلافة، وقد تصدّى له فئة من المسلمين بقيادة سيف الدولة فآلى أمره إلى فساد وهلاك؛ وهو في ذلك كأنه يرمي بنفسه في لجّة موجها متلاطم يغرق فيها المهرة من السبّاحين، فكيف بمن يجهل العوم في شاطئ البحر؟

أَمَـا لِـلْـخِـلَافَـةِ مِـنْ مُـشْـفِـقٍ
عَـلَـى سَـيْـفِ دَوْلَـتِـهَـا الْـفَـاصِـلِ[١]
يَـقُـدُّ عِـدَاهَـا بِـلَا ضَـارِبٍ
وَيَـسْـرِي إِلَـيْـهِـمْ بِـلَا حَـامِـلِ
تَـرَكْـتَ جَـمَـاجِـمَـهُـمْ فِـي الـنِّـقَـا
وَمَـا يَـتَـحَـصَّـلْـنَ لِـلـنَّـاخِـلِ[٢]
فَـأَنْـبَـتَّ مِـنْـهُـمْ رَبِـيـعَ الـسِّـبَـاعِ
فَـأَثْـنَـتْ بِـإِحْـسَـانِـكَ الـشَّـامِـلِ[٣]
وَعُـدْتَ إِلَـى حَـلَـبٍ ظَـافِـراً
كَـعَـوْدِ الْـحُـلِـيِّ إِلَـى الْـعَـاطِـلِ[٤]
وَمِـثْـلُ الَّـذِي دُسْـتَـهُ حَـافِـيـاً
يُـؤَثِّـرُ فِـي قَـدَمِ الـنَّـاعِـلِ[٥]

(١) المشفق: الخائف. الفاصل: القاطع، يروى «الفاضل» بدلاً من «الفاصل». يُنوّه الشاعر بقيمة سيف الدولة العظيمة وشدّة حاجة الخلافة إلى مجهوداته، ومع ذلك يسأل طالباً حمايته لئلّا يحصل له مكروه فتكون الخلافة بلا حام يدفع عنها الأطماع المحيطة بها من كل مكان، فالأعداء كثر، فيكفي أن يسمع الأعداء ببقائه حتى يُثير فيهم الرعب فيرتدعوا عن بغيهم وأطماعهم.

(٢) النقا: الكثيب من الرمال. يُخاطب الشاعر سيف الدولة بأن جيشه قد قضى على هذه الفئة، فإذا بالرؤوس قد غطّت الأرض، فلم تستطع خيوله إلّا أن تدوس تلك الرؤوس بقوائمها فتطحنها بعنف، فلو أن ناخلاً أراد أن ينخل التراب عن فتات تلك الرؤوس لما استطاع.

(٣) و (٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز للجرجاني: ٣٨٦. يُخاطب الشاعر سيف الدولة مثنياً على ما قام به من عمل عظيم، فقد ترك جثث القوم تغطّي الأرض، فكان للسباع دور متمّم لما قام به، فإذا بها تلتهم لحومهم وتمزّقها إرباً، إنه ربيعها، فقد أنبت لها ما هي بحاجة إليه، ولسان حالها يلهج بحمد إحسانه الشامل. وكانت عودة النصر إلى عاصمة إمارته، ظافراً، فكانت الفرحة تغمر الرعية بسلامته، وكأنها فتاة عذراء ارتدّت إليها حليها بعد أن كانت عاطلة، لا حليّ لها.

(٥) الناعل: المنتعل، لابس النعل. يضرب الشاعر مثلاً أن سيف الدولة لم يكن مستعداً =

وَكَـــمْ لَـــكَ مِـــنْ خَـــبَـــرٍ شَـــائِـــعٍ
لَـــهُ شِـــيَـــةُ الأَبْـــلَـــقِ الْـــجَـــائِـــلِ (١)
وَيَـــوْمٍ شَـــرَابُ بَـــنِـــيـــهِ الـــرَّدَى
بَـغِـيـضُ الْـحُـضُـورِ إِلَـى الْـوَاغِـلِ (٢)
تَـفُـكُّ الْـعُـنَـاةَ وَتُـغْـنِـي الْـعُـفَـاةَ
وَتَـغْـفِـرُ لِـلـمُـذْنِـبِ الْـجَـاهِـلِ (٣)
فَـهَـنَّـأَكَ الـنَّـصْـرَ مُـعْـطِـيـكَـهُ
وَأَرْضَـاهُ سَـعْـيُـكَ فِـي الآجِـلِ (٤)
فَـذِي الـدَّارُ أَخْـوَنُ مِـنْ مُـومِـسٍ
وَأَخْـدَعُ مِـنْ كِـفَّـةِ الْـحَـابِـلِ (٥)

= للقتال، ولم يتهيّأ له، إنه بمثابة الحافي، والأمر بحاجة إلى الاستعداد الكامل، ومع ذلك فقد داس الخارجي برجل القوّة.

(١) الشية: بقعة لونها يُخالف سائر لون الجلد. الأبلق: ما اختلط الأبيض والأسود فيه من الألوان. الجائل: الذي يجول بين صفين. ينوّه الشاعر بما لقي هذا الانتصار من صدًى في البلاد؛ فالكلّ يتذاكرون ويتحدّثون بإعجاب عن هذا النصر المبين، إنه بمثابة بقعة في جلد جواد يجول بين سرب من الخيول، وما يُميّزه من سواه تلك الشية.

(٢) الردى: الموت. الواغل: الذي يدخل على الشرب بلا دعوة. يُنوّه الشاعر بأعمال سيف الدولة الحربية التي انتصر فيها، فليس هذا اليوم فريداً في كفاح الأمير، ولكنه أحدها، وكأنه بمثابة واغلٍ بين جماعة كثيرة حشر نفسه ليكون مصدر اعتزازها وفخرها القائم بها.

(٣) العناة: الواحد عانٍ: الأسير. العفاة، الواحد عافٍ: الفقراء، المحتاجين. يمدح الشاعر سيف الدولة، إنه رحيم بالأسرى فيفكّ قيودهم ويعيد لهم كرامتهم وحرّيّتهم. ويُعين الفقراء المحتاجين فيبذل لهم المال ويُغنيهم عن السؤال فيُوفّر لهم كرامتهم ويعينهم على الاعتزاز بأنفسهم، ومن طبيعته الحلم والصفح الجميل فيغفر لمن أساء إليه خطيئته، ويتغاضى عنها.

(٤) الآجل: المتأخر. يدعو الشاعر لممدوحه أن ينعم بما حقّقه من نصر، فقد يسّره له ربّه وأعانه عليه، وعمله مقبول من خالقه، وسوف يرضى عنه في آجل عمره.

(٥) المومس من النساء: الفاجرة. الكفَّة: الشرك. الحابل: الصائد. يرى الشاعر أن =

تَـفَـانَـى الـرِّجَـالُ عَـلَـى حُـبِّـهَـا
وَمَـا يَـحْـصُـلُـونَ عَـلَـى طَـائِـلِ(١)

أعلى الممالك

قال عند مسيره لنصرة أخيه ناصر الدولة لما قصده معز الدولة بن الحسين الديلمي إلى الموصل، سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):

[البسيط]

أَعْـلَـى الـمَـمَـالِـكِ مَـا يُـبْـنَـى عَـلَـى الْأَسَـلِ
وَالـطَّـعْـنُ عِـنْـدَ مُـحِـبِّـيـهِـنَّ كَـالْـقُـبَـلِ(٢)
وَمَـا تَـقِـرُّ سُـيُـوفٌ فِـي مَـمَـالِـكِـهَـا
حَـتَّـى تُـقَـلْـقَـلَ دَهْـراً قَـبْـلُ فِـي الْـقُـلَـلِ(٣)
مِـثْـلُ الْأَمِـيـرِ بَـغَـى أَمْـراً فَـقَـرَّبَـهُ
طُـولُ الـرِّمَـاحِ وَأَيْـدِي الْـخَـيْـلِ وَالْإِبِـلِ(٤)

= الدنيا غادرة بأهلها لا يدوم لها ودّ كمومس لا تخلص لمخلوق، تتلوّن بألوان شتّى، فمكرها أشدّ من شبكة صياد، فلا يُفلت من شركها من سكن إليها واطمأنّ.

(١) الطائل: ما يستطيع المرء تحقيقه. إنها طبيعة البشر لتعمر الدنيا، فكلّهم يجهدون في سبيل استرضائها، فحبّها ملك عليهم قلوبهم وعقولهم، ويتفانى الخلق فيها، وتكون النتيجة الأليمة حفنة تراب تُرضي غرورهم، فلا يحصلون على طائل، فهم يرحلون تاركين كلّ شيء ليبقى طعماً لغيرهم، وهكذا تمرّ الحياة.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٩. الأسل، الواحدة أسلة: الرماح. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع ملحميّ يتوافق مع موضوع المدح. لا تُشاد الممالك إلّا بالقوّة والقدرة، وترتفع أركانها بالرماح، لذا فعلى من يتصدّى لعمل كهذا أن يتعرّض للطعن والمجاهدة، إنها قبل يلذّ طعمها لمن يبغي تحقيقها.

(٣) تقلقل: تتحرك بعنف. القلل، الواحدة قلّة: أعلى الرأس. يذكر الشاعر حال استقرار الممالك؛ ينتج استقرارها بالدفاع عنها بالسيوف تقطع دابر الفتن وتقضي على الأعداء. وسبب ذلك أن الديلميّ قد انصرف عن الموصل لما وجد أن سيف الدولة أراد منازلته، فرحل بسلام دون إراقة الدماء.

(٤) بغى: أراد وطلب. يُخاطب الشاعر الأمير أن ما يطلبه يُحقّقه بإرادته الصلبة وعزيمته القوية، وما يجعله سريع التحقيق السلاح من رماح وخيل وإبل وجند.